الغرب في عيون رحّالة من لبنان

نازك سابا يارد

يتأثّر الإنسان ببيئته، حضارته وثقافته، وإلى حد بالمهنة التي يمتهنها. فلا بدّ أن تكيّف هذه العوامل نظرته إلى الآخر وأن تؤثّر فيها. ورؤية الآخر، سواء من منظور إيجابي أم سلبي، تتمّ من خلال المقارنة المباشرة أو غير المباشرة، الواعية أو غير الواعية، مع الذات الاجتماعية/ الأخلاقية/ الثقافية/ القومية. وبما أن أدب الرحلات من الآداب التي تبرز ذلك كله، إخترنا أن نبيّن في هذه المقالة نظرة البعض من اللبنانيين الذين دوّنوا مشاهداتهم وانطباعاتهم إثر زيارتهم للغرب. وقد اخترنا رحالة مسيحيين ومسلمين، بعضهم عاش الانتداب الفرنسي في لبنان، والبعض الآخر كتب في عهد الاستقلال. وكان غرضنا من خلال هذا الاختيار أن نرى هل أثر في نظرتهم إلى الغرب اختلاف الدين، من جهة، واختلاف علاقة وطنهم بالغرب الذي زاروه، من جهة أخرى؟ وكيف أدت هذه النظرة إلى رؤية أنفسهم من خلال ما رأوا في الغرب؟

أما الرحالة الذين اخترنا فحنا خباز الذي زار كندا والولايات المتحدة ما بين تشرين الثاني عام ١٩١٨ وأيار ١٩٢١ ودوّن مشاهداته وانطباعاته في الجزء الثاني من كتاب «**حول الكرة الأرضية**» (وكان الجزء الأول من الكتاب حول رحلاته إلى الشرق الأقصى). كان خباز صاحب «كلية حمص الوطنية»، وهدف رحلته جمع التبرعات لهذه المدرسة. واخترنا الإمام محمد

رشيد رضا، صاحب مجلة «المنار» وتلميذ الشيخ محمد عبده، وقد دوّن في «**الرحلة الأوربية**» من كتاب «**رحلات الإمام محمد رشيد رضا**» إنطباعاته حين اشترك سنة ١٩٢١ في «مؤتمر سوري» عُقد في جينيف، مركز عصبة الأمم، للمطالبة باستقلال سورية وغيرها من البلاد المنفصلة عن تركيا. وكتب المؤرخ الشهير فيليب حتي سنة ١٩٢٢ «**أمريكا في نظر شرقي**» إثر إقامته في الولايات المتحدة لأهداف علمية. وللإشتراك في مؤتمر صحافي سافر فؤاد صروف عام ١٩٢٤ إلى الولايات المتحدة ودوّن انطباعاته في كتاب «**مشاهد العالم الجديد**». وفي صيف ١٩٣٠ سافر الفنان مصطفى فروخ إلى أسبانيا من فرنسا، حيث كان يقيم لإتقان فنه.

أما من عهد الاستقلال فاخترنا كتاب «**من بلد إلى بلد**» لحسن الأمين الذي زار أوروبا ونيويورك في صيف ١٩٤٩ رغبة بالسياحة، ورحلة غريبة الهدف وفريدة بين الرحلات التي طالعنا، هي «**الرحلة إلى موسكو**» التي كتبها الكاهن الكاثوليكي رمزي حبيب مالك إثر زيارته لروسيا في صيف ١٩٦٣ ليتعرف إلى كنائسها ورجال الدين فيها.

وجدير بالذكر أن أصحاب هذه الرحلات اهتموا بزيارة الولايات المتحدة، فيما كانت رحلات الرحالة في القرن السابق إلى أوروبا وحدها، كرحلات الطهطاوي وخير الدين التونسي والشدياق وفرنسيس مراش، مثلاً.

ولكن على غرار رحالة القرن السابق اهتمّ رحالة هذه الحقبة أيضاً بمختلف مظاهر الحضارة الغربية، من سياسية واجتماعية وأخلاقية وعلمية وفنية.

١ ـ القضايا السياسية

أ) أثر الشعور القومي/ الديني

إن نظرة العربي إلى الغرب تبدو أكثر ما تبدو متأثرة بكونه عربياً في آرائه السياسية. وذلك نتيجة العلاقة بين وطنه والغرب. إلا أنها ليست بمنأى أيضاً عن انتمائه الثقافي/ الديني.

فيما يتعلّق بنظام الحكم ينتقد المسيحي خباز والمسلم حسن الأمين على السواء الحكم المستبد الظالم، على الرغم من الفارق الزمني بينهما. ولكن فيما مثلته في نظر خباز السلطة العثمانية «الغشومة الظلومة» التي عاش ردحاً من الزمن في ظلها

والتي سببت المجاعة في لبنان[١]، رآه حسن الأمين ممثلاً في حكومة لبنان الفاسدة على الرغم من الاستقلال، حكومة لا توفّر للشعب حقه في العلم والعيش الكريم، فهذا الشعب «هو ضحية السيطرات الظالمة التي جعلت منه جزءاً من القطيع لا يتميّز عنه إلا بأنه يحمل من العسف ما لا يحمله القطيع، وإلا بأن الغذاء والماء والطمأنينة متوفّرة للقطيع وغير متوفّرة له.»[٢] وقد أبدى حسن الأمين هذه الملاحظات على بلاده حين شاهد رقي الرعاة أنفسهم في جبال الألب، نتيجة رعاية الحكومة لأفراد الشعب جميعاً.

وعلى نقيض ما ذهب إليه خباز يؤكد محمد رشيد رضا أن بعض الولايات والألوية في سورية ولبنان كانت تتمتع بالحرية أيام الحكم العثماني ولم تفقد هذه الحرية إلا حين احتلتها فرنسا.[٣] كما يبيّن أن الرئيس الصيني لجمعية الأمم في جينيف عام ١٩٢١ قال له إن أوروبا تكذب حين تدّعي توحّش الأتراك وظلمهم للمسيحيين عامة والأرمن خاصة، وأنه شاهد بنفسه في الآستانة معاملة مسلمي الأتراك للأرمن.[٤] وعليه يؤكد رشيد رضا «أن الترك أصدق وأبر وأعدل وأرحم من الإفرنج عامة ومن الإنكليز والفرنسيين خاصة.»[٥] فتألم لما منيت به تركيا من فقر ومصائب كفقدها البلاد العربية كلها.[٦] وأنحى باللائمة على شريف مكة وأولاده الذين كانوا في رأيه «من أسباب وقوع البلاء على هذه البلاد.»[٧] لقد أدّعى الإنكليز أن حربهم ضد تركيا هي لتحرير الشعوب ومنحها استقلالها، وإذ بالإنكليز والفرنسيين يحتلون مكان الأتراك[٨]. ولا يخفي نقمته على ما رافق الإحتلال الفرنسي لسوريا ولبنان من قسوة وإرهاب وظلم: فقد دمّر الفرنسيون ست قرى وسبع عشرة مزرعة

---

(١) حنا خباز، **حول الكرة الأرضية**، الجزء الأول، مطبعة جريدة الوطن، سنتياغو، شيلي، الطبعة الثانية، م. ت. ص ٥٦.

(٢) حسن الأمين، **من بلد إلى بلد**، منشورات دار التراث الإسلامي، بيروت، ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م، ص ٢٤٧.

(٣) محمد رشيد رضا، **رحلات الإمام محمد رشيد رضا**، جمعها وحققها الدكتور يوسف إيبش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧١، ص ٣٥٣.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٧٠.

(٥) المرجع السابق، ص ٣٨٠.

(٦) المرجع السابق، ص ٣٣٨.

(٧) المرجع السابق، ص ٣٣٨ و ٣٤١.

(٨) المرجع السابق، ص ٣٦٣.

بسبب اعتداء شخصي، لا غير، واستنزفوا خيرات البلدان، وعيّنوا موظفين أجانب ظالمين وغير مقتدرين، وأخضعوا البلدين لحكم عسكري مطلق جائر.[٩] أما فلسطين، فرأى أن كيد اليهود قد تضافر مع خداع الإنكليز لاحتلالها لأنها مهد المسيح وميدان الحروب الصليبية الإسلامية التي فيها قهر صلاح الدين ملكهم «ريكارد قلب الأسد». فاستعان الإنكليز بأموال اليهود وبمساعدة الولايات المتحدة كي ينتقموا من المسلمين لهزيمة «ريكارد» والصليب.[١٠] وإذ يدّعي الإنكليز أنهم يمنحون اليهود فلسطين وطناً قومياً بحجة أنها كانت لهم قديماً، يدحض رشيد رضا هذا الإدعاء بقوله إنه يكون إذاً من حق العرب أن يسترجعوا الأندلس التي كانت هي أيضاً لهم قديماً[١١]. وقد شعر رشيد رضا أن الدولة البريطانية ليست خصم المسلمين وحدهم، وإنما خصم الشرق كله، ولذلك رأى أن اتحاد جميع الدول الإسلامية والشرقية وتعاونها كفيلان بدفع الإحتلال الإنكليزي والفرنسي عنهم[١٢].

في هذه الآراء يبرز تأثر رشيد رضا بانتمائه الديني، من جهة، وبالأحوال السياسية التي عاشها، من جهة أخرى. فلأنه مسلم مؤمن أحس بالقربى بينه وبين الدول الإسلامية جميعها، ولا سيما بينه وبين الدولة العثمانية، فلم يرَ ظلم الأتراك وقسوتهم، وأنكر أحداثاً تاريخية كالمذبحة التي ذهب فيها ضحية الحكم العثماني سنة ١٩١٥ ما يزيد على مليون أرمني. ولأن الرابطة الدينية حلّت في فكره محل الرابطة القومية لم يشعر بالدافع القومي الذي جعل الشريف حسين يتفق مع «ماكماهون» عام ١٩١٥ على محاربة الدولة العثمانية للإستقلال عنها. وهذا الشعور الديني نفسه جعله يعتبر أن الإنكليز احتلوا فلسطين انتقاماً من المسلمين لهزيمة «ريكارد» في الحروب الصليبية (قبل حوالي سبعة قرون!) أما نقمته الشديدة على الإنكليز والفرنسيين دون غيرهم من الدول الغربية فسببها، دون شك، نكث الإنكليز بوعودهم للعرب من خلال معاهدة «سايكس/ بيكو» (١٩١٦) ووعد «بلفور» (١٩١٧) وما نتج عنهما من حلول الانتداب الغربي محل الدولة العثمانية[١٣].

---

(٩) المرجع السابق، ص ٣٥٣.

(١٠) المرجع السابق، ص ٣٤١ ـ ٣٤٢.

(١١) المرجع السابق، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦.

(١٢) المرجع السابق، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦.

(١٣) فبعد الحرب العالمية الأولى دعا «ويلسون»، رئيس الولايات المتحدة حينذاك، إلى احترام القوميات وحقوق الأمم في تقرير مصيرها وحرية الارتقاء بدون عائق. وكان الإنكليز والفرنسيون من أعضاء =

وفي هذه الحقبة التاريخية عينها يكتب المسيحي حنا خباز، أنه يعتزّ بأن مدرسته «وطنية لا تميّز بين الطوائف.»[١٤] وعلى نقيض ما ذهب إليه محمد رشيد رضا يؤكد خباز أننا «كنا في تركيا نُهان مضطهدين لأننا ندرس الإنكليزية، لخير الأمة، إذ كنا نسلح أبناءنا بتلك اللغة ليتمكنوا من فتح طريقهم في معترك الحياة»[١٥]. ولذلك كان أسعد أيام حياته حين بلغه سقوط لبنان وسورية في يد الإنكليز وتخلصهم من «النير التركي إلى الأبد.»[١٦] وحين أكد له ولد هندي أن الإنكليز كانوا أيضاً من المستعبِدين، في الهند، مثلاً، أجابه خباز: «إلى الآن لم يستعبِدونا. متى ظهر منهم ذلك فسأبغضهم.»[١٧]

ما ميّز خباز عن الأتراك ليس الدين وحده وإنما القومية أيضاً. ولذلك لا نستغرب كرهه للأتراك. إلا أننا نطرح السؤال حول موقفه من الإنكليز. أثناء وجوده في الولايات المتحدة ما بين ١٩١٩ و١٩٢١ يذكر أنه كان يقرأ الصحف كل يوم. إلا أنه لم يشر مرة واحدة في «حول الكرة الأرضية» إلى ما كان يدور في جينيف، إلى نكوث الإنكليز بوعودهم للعرب، إلى اقتسام الإنكليز والفرنسيين أشلاء الدولة العثمانية، وحلول الإنتداب الإنكليزي في فلسطين محل الإحتلال التركي. فلم يظهر في كتابه أبداً أنه «بغض» الإنكليز لأنهم استعبدوا العرب، كما ادّعى أنه سيفعل. وهذا يجعلنا نتساءل: هل كان ميل خباز إلى الإنكليز منزهاً من كل ميل ديني إليهم؟

وامتزاج الشعور القومي بالشعور الديني نجده أيضاً عند حسن الأمين من رحالة الجيل اللاحق. يهتف قلبه حين يرى جملة عربية فوق باب حمام قديم أو حجر في بناء في سلانيك.[١٨] وحين يصف مشاهداته في قصر «فرساي» لا يستطيع إلا أن «يستعرض ما مرّ على القصر من أحداث وما رافق تاريخه من شؤون كان آخرها معاهدة فرساي المشؤومة.»[١٩] ويقصد المعاهدة التي وُقّعت في ٢٨ حزيران سنة

= جمعية الأمم المنعقدة آنذاك في جينيف، إلا أنهم ضربوا عرض الحائط بهذه التوصيات، فضلاً عن لعبتهم المزدوجة إذ وقّعوا مع الشريف حسين اتفاقية ناقضوها باتفاقيتهم مع الفرنسيين واليهود.

(١٤) حنا خباز، **حول الكرة الأرضية**، الجزء الثاني، حمص، ١٩٢٣ (لم يذكر الناشر)، ص ١٢٠ و ١٨٦.

(١٥) المرجع السابق، ١: ٢٧٥.

(١٦) المرجع السابق، ١: ١٧٧.

(١٧) المرجع السابق، ٢: ٣٣٣.

(١٨) حسن الأمين، **من بلد إلى بلد**، منشورات دار التراث الإسلامي، بيروت، ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م، ص ٢٨١.

(١٩) المرجع السابق، ص ٢٤٠.

١٩١٩ ووضعت لبنان وسورية تحت الإنتداب الفرنسي. ولكن يثيره أن سلانيك التي انطلقت منها جمعية الإتحاد والترقي وولد فيها مصطفى كمال، أن سلانيك هذه أصبحت اليوم بلداً يونانياً عريقاً.[٢٠] فنستشفّ من مثل هذه الجملة أن الأمين لا يزال يشعر برابط ديني يربطه بالأتراك فيتألم لما فقدوه من ممتلكات.

فماذا نجد في كتابات صروف ومصطفى فروخ من رحالة الجيل السابق، والكاهن الكاثوليكي رمزي حبيب مالك من رحالة الجيل اللاحق؟ على غرار خباز ينتقد صروف الحكم العثماني في وطنه مبيّناً أن فقر لبنان والأحوال السياسية فيه أثناء الحكم العثماني حملا سكانه على الهجرة.[٢١] ونعرف أن والد صروف نفسه كان من بين الذين هاجروا إلى مصر. وقد أعتزّ صروف بهؤلاء المهاجرين العرب، لبنانيين وسوريين، الذين قابلهم في الولايات المتحدة وخصّهم بفصلين كاملين من كتابه، واصفاً نجاحهم في التجارة والصناعة والصحافة والفنون ومختلف المهن الحرّة. [٢٢] إلا أنه أعتزّ أكثر ما أعتزّ بأدباء المهجر لأنهم أحيوا اللغة العربية وآدابها وأغنوهما.[٢٣] كما أعتزّ بالحضارة التي نشرها العرب في الأندلس قديماً،[٢٤] وآلمه أن الجيل الثاني من أولاد المهاجرين العرب لم يعد يهتمّ بلغة آبائه.[٢٥] وحين رفض الموظف الأميركي إنزاله من الباخرة مع الركاب الأميركيين على الرغم من أنه مدعو إلى مؤتمر لا يستطيع التأخر عن موعد افتتاحه، يكتب: «آثار الفشل قد حرّكت في أعماق نفسي بقيّة باقية من العزّة القومية... وقلت ألا تُتاح لنا دول شرقية منيعة الجانب تعتزّ بعزّتها وتلتفّ حول لوائها آمالنا وأمانينا؟!»[٢٦] في مثل هذه المواقف ينظر صروف إلى الغرب بعين العربي الضعيف الذي أذلّته عنجهية الغربي فثارت عزّته القومية متألمة، ناقمة. وهي عزّة قومية نستشفّ من كلامه أن أسسها حضارية، لغوية، علمانية، لا أثر للدين فيها.

وحين زار عمر فروخ روائع الأندلس كان طبيعياً أن يركّز فيها على فن العرب الهندسي والمعماري في طليطلة وقرطبة وإشبيلية ولا سيما في قصر الحمراء في

(٢٠) المرجع السابق، ص ٢٨٢.
(٢١) فؤاد صروف، **مشاهد العالم الجديد**، المطبعة العربية، مصر، ١٩٢٥، ص ٧٣.
(٢٢) المرجع السابق، ص ٧٢ ـ ٧٦.
(٢٣) المرجع السابق، ص ٨٠ ـ ٨٤.
(٢٤) المرجع السابق، ص ٧٩.
(٢٥) المرجع السابق، ص ٨٦.
(٢٦) المرجع السابق، ص ١٥.

غرناطة الذي خصّه بثلث كتابه.[٢٧] وقد دفعه اعتزازه بهذه الروائع إلى بعض المبالغة أحياناً، فأمام الرسوم على محراب جامع قرطبة الرائع يقول، مثلاً: «وقفت عندها دقة «روفائيل» وفنّه، وأين منها «ميكالينج» و«رامبرانت»!»[٢٨] كذلك اعتزّ بما كان للعرب في الأندلس من علوم وفلسفة وآداب. حتى كرم الأسبان وحسن حفاوتهم بالضيف يراهما فروخ «من بقايا ما ورثوه عن العرب.»[٢٩] أما علوم الغرب، فقد أخذها الأوروبيون عن العرب: «فأتمثّل أحبار روما ورجال الأمم الأوروبية يومئذ، وكانوا ما يزالون في الجهالة، أي نعم أتمثّلهم وقد أتوا لتلقي العلوم في المعاهد العربية.»[٣٠] ويأسف لما آل إليه العرب اليوم: «لم يبقَ لنا من مجدنا الغابر سوى بقية آثار هي شاهد عدل.»[٣٠] كما يأسف لأن الأسبان أهملوا ما كانوا قد ورثوه من حضارة العرب في الأندلس. فبعد أن كانت قرطبة، مثلاً، «عاصمة الحضارة ومركز العلوم والآداب والصناعات والفنون» أصبحت الآن قرية صغيرة مهملة ملأى بمقاهٍ «تعجّ باللاعبين وكثير من النائمين أيضاً.»[٣١].

فلعل فروخ وجد في هذا الواقع ما يقلل من شأن الغرب الذي قلّل في عصره من شأن العرب. كما نشعر أن وراء اعتزازه بأخذ الأوروبيين علومهم عن العرب قديماً نوعاً من التعويض عن تخلف العرب الراهن، ورغبة خفية بأن ينتقم لقوميته الضعيفة ممن كان من أسباب إضعافها، سواء وعى فروخ ذلك أم لم يعِه. أو كأنه ينوّه بأنه لا يضير العرب أن يأخذوا اليوم عن الغرب ما يأخذون، ما دام الغرب قد أخذ عنهم في الماضي ما مكّنه من التقدم الحضاري اليوم. ولعلّه أراد أيضاً أن يستنهض همم مواطنيه الذين آلمه ما هم عليه من خمول وتخلف وجهل واتكالية.[٣٢] أو لم يخاطبهم مؤكداً: «إن أمة لها هذا الفن وهذا التاريخ الحافل بالعظائم وجلائل الأعمال، لهي أمة لن تموت»؟[٣٣] وعلى أية حال، فإن شعور فروخ شعور قومي علماني خالص لا أثر للدين فيه.

---

(٢٧) مصطفى فروخ، **رحلة إلى بلاد المجد**، مطبعة الكشاف، بيروت، ١٣٥٢ هـ/١٩٣٣ م ص ٤٠ ـ ٤٥، ٥٤ ـ ٩٤، ٩٩ ـ ١٥٦.

(٢٨) المرجع السابق، ص ٧٠.

(٢٩) المرجع السابق، ص ٣٠.

(٣٠) المرجع السابق، ص ٣.

(٣١) المرجع السابق، ص ٥٦.

(٣٢) المرجع السابق، ص ٣٠، ٣٧ ـ ٣٩.

(٣٣) المرجع السابق، ص ٥.

وفي الحقبة اللاحقة نجد الكاهن الكاثوليكي رمزي مالك يتهجّم بعنف على المستعمرين الفرنسيين والإنكليز الذين فرضوا لغتهم على شعوب مستعمراتهم، «بخاصة في مدارس المبشرين الكاثوليكيين... هذا ما حدث في مصر وفي لبنان أيام الإنتداب. فأمسى جيلنا الذي تعلم في هذه المدارس ضعيفاً بلغته العربية الأم. وهو خطأ جسيم ـ بل جريمة ـ ليس بالنسبة إلى الكيان القومي العربي ـ مع العلم أن لذلك الكيان أيضاً حقوقه المقدسة ـ بقدر ما هي بالنسبة إلى الشهادة التي خصّ بها الرب مسيحيي الشرق إزاء إخوانهم المسلمين العرب. إن يسوع الكلمة إنما نطق بلغة الشعب. وإنني أريد لشعبي ليتورجية عربية، لا لاتينية، ولا فرنسية، ولا بيزنطية، ولا سريانية.»[٣٤] ثم يرفض مالك الأزدواجية اللغوية التي يعتبرها بعض اللبنانيين جزءاً من تاريخهم وكيانهم. «فعلى اللبناني المسيحي، بخاصة الكاثوليكي، أن يفضح نفاق النظرية القائلة بأن الازدواجية اللغوية هي من تاريخه وكيانه ودعوته. لا ريب أن تعلّم اللغات الغربية ضرورة للبناني المنفتح حتماً على الشرق والغرب معاً... غير أن لغتنا في لبنان، في التاريخ الحاضر، لغة كياننا ودعوتنا ورسالتنا، إنما هي العربية. وينبوع لغتنا العربية... هو القرآن. لذلك يجب نصّ قانون عام لتعليم القرآن في المدارس منذ روضة الأطفال.»[٣٥] وعليه حمل مالك بشدّة على «شوام» مصر الذين تنصلوا من أن يكونوا مصريين أو لبنانيين أو سوريين أو عرباً، فكانوا «خواجات» لا أرض لهم ولا أصل ولا تاريخ.[٣٦]

في كتابة مالك نجد موقفاً عربياً قومياً علمانياً خالصاً. فهذا الكاهن المسيحي يهاجم المدارس المسيحية التي أسسها الغربيون، وينطلق من دينه المسيحي، من كلمة المسيح، ليعبّر عن تمسكه بالعروبة ولغتها رابطاً قومياً بين المسيحيين والمسلمين العرب على السواء، وليطالب بفرض دراسة القرآن على الجميع لأنه ينبوع اللغة العربية. إنها القومية العلمانية القائمة على التمسك باللغة وحضارتها، والتي ترفض أن يفرّق الدين بين أفراد الشعب الواحد. لم نجد في كتابات الرحالة الآخرين الذين تناولهم هذا البحث مثل هذا الموقف العلماني الصريح. إنها القومية التي أخذ بها بعض المفكرين العرب نتيجة تأثرهم بالغرب.

(٣٤) رمزي حبيب مالك، **الرحلة إلى موسكو**، دار الكلمة، بيروت، ١٩٧١، ص ١٠٦ و١٦٧.
(٣٥) المرجع السابق، ص ١٦٨.
(٣٦) المرجع السابق، ص ١٦٩ ـ ١٧٠.

ب) نظم الغرب السياسية

كان إحساس رحالتنا القومي سبب تهجم معظمهم على الغرب. فما كان موقفهم من نظم الغرب السياسية؟

نلاحظ، أولاً، أنهم نظروا جميعاً بإعجاب إلى نظم الغرب السياسية وبعين من حُرم ما فيها من حسنات.

فلولا إيمان رشيد رضا بنظام الغرب الديمقراطي لما طالب باتحاد سورية ولبنان وفلسطين في دولة واحدة تحكمها حكومة مدنية مسؤولة أمام مجلس نيابي ينتخبه الشعب.(٣٧) كذلك آمن بأن في أوروبا فكراً حراً وديمقراطية يستطيعان التأثير على حكومات أوروبا المستعمِرة لتثنيها عن ظلمها، فيطالب بأن «يعنى أحرار أوربة بإقناع رجال الدول المستعمِرة أو إكراههم بقوة شعوبهم الأدبية ومجالسهم النيابية، على قاعدة حرية الشعوب وسيادتها القومية.»(٣٨) إلا أننا نراه يقول، من جهة أخرى، إن من خدع الإنكليز أن يقوم فيهم من يعارض سياسة دولتهم ليوهم سكّان البلاد المحتلّة أن أملهم في الاستقلال ليس مبنياً على أنفسهم، وإنما على هؤلاء المعارضين من الإنكليز، فيفقدون بذلك كل ثقة بالنفس وبإمكانية النضال للتحرّر.(٣٩)

ويتجلّى هنا الصراع والتناقض في فكر رشيد رضا السياسي. فمن جهة، يبني أيمانه بتحرر العرب على هؤلاء الغربيين الديمقراطيين الأحرار الذين يستطيعون التأثير على حكوماتهم المستعمِرة، ولكنه يرى، من جهة أخرى، أن ادّعاء هؤلاء الغربيين حرية الرأي ومقاومة سياسة دولهم ليس إلا من الخدع التي يلجأون إليها لتضليل العرب. ويبرز تناقض آخر في موقفه من النظم السياسية الغربية: فهو يشيد بالمجالس النيابية، وهذا يتضمن الإشادة بنظام ديمقراطي عادل، ولكنه يرى، من جهة أخرى، أن المدنية الغربية قائمة على سلب الأقوياء لحقوق الضعفاء.(٤٠) ويغضّ النظر تماماً عن أن هذا هو وضع الضعفاء في شرقه العزيز، فضلاً عن أن «سلب الأقوياء لحقوق الضعفاء» في النظم الديمقراطية الغربية أقل منه عما كان عليه في الدولة التركية التي دافع عنها بشدّة.

---

(٣٧) رضا، رحلات الإمام محمد رشيد رضا، ص ٣٥٦.
(٣٨) المرجع السابق، ص ٣٦٩.
(٣٩) المرجع السابق، ص ٣٤٢.
(٤٠) المرجع السابق، ص ٣٧٢.

أما خباز فلا يرى في الحكومات الغربية إلا حسناتها. يشيد، مثلاً، بالحكومة الكندية التي ترعى الأهالي وتساعدهم في أوقات الشدة،[٤١] أو يؤكد أن الإنكليز أدخلوا في الهند العدالة والعلم والمواصلات والمتاحف وأكبر البنوك، ولذلك يعتبر الهنود ناكري جميل إذ ناوأوا الإنكليز مطالبين بالاستقلال.[٤٢] ولا يذكر عن السود في الولايات المتحدة إلا أنهم لصوص، كذابون، وكثيراً ما يغتصبون النساء البيض.[٤٣] فإعجابه بالغرب وبنظمه حال دون أن يستنكر ما رآه من تفرقة عنصرية في الولايات المتحدة، كما حال دون أن يلتفت إلى الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي دفعت هؤلاء السود إلى إرتكاب ما ارتكبوا من أعمال مشينة، فلا يذكر شيئاً عن استغلالهم واستعبادهم من قبل البيض.

لم يكن إعجاب حتي وصروف بنظم الحكم الغربية بأقل من إعجاب خباز، إلا أنهما أشارا، ولو إشارة عابرة، إلى ما في تطبيقها من شوائب. إنهما يؤكدان أن الأميركيين جميعاً متساوون أمام القانون، فـ «الشريعة هي القاضي، لا شخصية القاضي»[٤٤] ويؤكد صروف أن تمثال الحرية أمام نيويورك يرحب «بجميع الذين يطلبون الحرية والعدل والمساواة ويقدسونها كأسمى ما في الحياة.»[٤٥] ونتيجة مساواة المواطنين أمام القانون تُتاح فرص الارتقاء والاغتناء للجميع.[٤٦] وقد أتيحت هذه الفرص في رأي حتي للمهاجرين الأول الذين وجدوا أنفسهم في بلاد غنية «لا سكان فيها سوى شرائم هندية بربرية لم تبلغ من المدنية درجة يمكنها فيها استثمار البلاد واستعمارها.»[٤٧] أما فيما يتعلّق بمعاملة البيض للسود، فيكتفي حتي بأنها «نقطة سوداء في حياة البلاد الاجتماعية.»[٤٨]

قد يكون لإعجاب الرحالتين بتساوي الجميع أمام القانون في أميركا أسباب عديدة. أولها سياسة الولايات المتحدة الخارجية في تلك الحقبة. ففي محادثات السلام

---

(٤١) خباز، **حول الكرة الأرضية**، ٢: ٢٠٣.
(٤٢) المرجع السابق، ١: ٦٤ ـ ٦٥.
(٤٣) المرجع السابق، ٢: ١٧٠، ١٩٠، ٢٢٦.
(٤٤) فيليب حتي، **أمريكا في نظر شرقي، أو ثماني سنوات في الولايات المتحدة**، إدارة الهلال، مصر، ١٩٢٤، ص ٦٥.
(٤٥) صروف، **مشاهد العالم الجديد**، ص ٢٣.
(٤٦) المرجع السابق، ص ٢٦. ولحتي قول شبيه في: أمريكا في نظر شرقي، ص ٦٦.
(٤٧) حتي، **أمريكا في نظر شرقي**، ص ٣٤.
(٤٨) المرجع السابق، ص ٦٧.

التي أعقبت الحرب العالمية الأولى لم يطالب بحق الشعوب بالاستقلال وحرية تقرير المصير إلا رئيس الولايات المتحدة «ودرو ويلسون»، وكان ذلك قبل إبحار الرحالتين إلى أميركا ببضع سنوات فقط. وكان «ويلسون» ما يزال على قيد الحياة حين كان حتي في أميركا، ولو أنه لم يعد رئيس جمهوريتها، وتوفي قبل زيارة صروف بخمسة أشهر. ثم لعلهما شعرا أيضاً بالفرق الشاسع بين هذه المساواة وبين الحال في وطنهما، حيث تكون «الشريعة هي شخصية القاضي» ولا تتاح الفرص في هذا الوطن إلا للأغنياء والمتنفذين. ولكن إعجابهما أعماهما عن وقائع تاريخية واقتصادية. فالهنود الحمر كانوا أصحاب حضارة وإن اختلفت عن حضارة المهاجرين الأوروبيين. ولم يشر حتي إلى المجازر الوحشية التي ارتكبها هؤلاء في غزو أميركا. كما أنه لم يبيّن التناقض بين المساواة التي أشاد بها وبين معاملة العبيد والسود في أميركا والتي اكتفى بأنها «نقطة سوداء في حياة البلاد الاجتماعية». كذلك لم يعر صروف السود وأوضاعهم أي اهتمام. وإنما انتقد تفرقة الموظف الأميركي بين الأميركيين وغيرهم إذ أنزل الأميركيين من الباخرة وترك الآخرين لليوم التالي، وكان صروف بينهم، فيقول صروف: «أنجد التمييز بين شعب وشعب حتى في مرفأ الولايات المتحدة العظيم ـ بلاد الحرية والديمقراطية؟!»[٤٩] فنحسّ أن نقمته ناجمة عن أسباب شخصية، عن ثورة العزّة التي أهينت، لا عن وعيه أن للديمقراطية والحرية حدوداً حتى في الولايات المتحدة نفسها.

ولكن سياسة الولايات المتحدة الخارجية كانت قد تغيّرت تماماً حين سافر حسن الأمين إليها في منتصف القرن العشرين. موقف الرئيس «ويلسون» فيما يتعلّق بحقوق الشعوب وحرياتها كان قد أصبح من ذكريات التاريخ، وبالنسبة لحكومة بلاده حبراً على ورق. فموقف رئيسها «ترومان» من القضية الفلسطينية عام ١٩٤٨ معروف، كما هو معروف تدخلها في شؤون البلاد الأخرى وسياستها. وعلى الرغم من حرب تحرير العبيد لم يكن للسود الأميركيين ما للبيض من فرص وحقوق تشعرهم بالعدل والمساواة. لذلك لا يذكر الأمين عن حكومة الأميركيين إلا ما يدلّ على الظلم والقهر. فأصحاب تمثال الحرية، في رأيه، لا علاقة لهم بالحرية، بل ساعدوا «على وأد الحريات وعملوا على خنقها. لن نذكرهم بفلسطين، بل ندلهم على مواطنيهم السود الذين يحاولون تنسّم الحرية ولكن عبثاً يحاولون.» فيهتف من أعماق قلبه:

---

(٤٩) صروف، **مشاهد العالم الجديد**، ص ١٤.

«أيتها الحرية! إنهم يريدونك لغيرهم صخراً يابساً كهذا التمثال، وحديداً صلداً كهذه الآلات، وأمّا لهم فريّا طيّبة كهذه النسمات، وعبيراً زكياً كهذه النفحات.»[٥٠] وإزاء كثرة الفقراء والبؤساء في نيويورك يقول إنه «كان أحرى بمشاريع أميركا المتدفقة إلى ما وراء البحار وعبر القفار أن تنهلّ... بالرحمة والخير على هؤلاء البؤساء.»[٥١] ولعله يشير هنا إلى مشروع «مارشال» الذي ساعد أوروبا اقتصادياً بعد الحرب العالمية الثانية، فتسنى للحكومة الأميركية أن تتدخل في شؤون أوروبا السياسية نتيجة ذلك، كما تجلّى في اتفاقية NATO، مثلاً.

٢ ـ حضارة الغرب

أ) مجتمعه وأخلاقه

أياً كان موقف الرحالة من سياسة الغرب، فإنهم أعجبوا جميعاً بالمظاهر المادية لحضارته، من ناطحات السحب إلى الفنادق الفخمة والمطاعم والبورصة والجسور العظيمة والشوارع المنظمة وسبل المواصلات وما إلى ذلك مما يميّز المدن الكبيرة في الولايات المتحدة.[٥٢]

إنهم ينظرون إلى هذه المظاهر بعيون الآتين من بلد فقير. وإن لفت نظر صروف الصحافي «نزاهة» الصحف الأميركية «في نقل الأخبار وسرعتها في نشرها واستقلالها في الرأي وإنصافها في التعليق والانتقاد وعدم الغبن بالمال مهما يكن طائلاً للحصول على الأخبار»[٥٣] فلأنه قارن بين صحف الولايات المتحدة وصحف بلاده الخاضعة لكل أنواع الرقابة، إن في لبنان الذي عاش فيه ردحاً من الزمن واضطرّ والده إلى مغادرته بسبب التعسف العثماني، أو في مصر التي هاجر إليها وكانت خاضعة للاحتلال البريطاني. وكان صروف يكتب عن صحف ما قبل تدخل الولايات المتحدة في شؤون العالم خارجها.

ولكن ما لفت نظر رحالتنا أكثر من المظاهر المادية كان أخلاق الغربيين. وهنا كان لبيئة الرحالة وثقافته أثر واضح في ما تنبّه إليه. أعجب خباز المربي بآداب

(٥٠) الأمين، **من بلد إلى بلد**، ص ٣١٠.
(٥١) المرجع السابق، ص ٣٠٨.
(٥٢) خباز، **حول الكرة الأرضية**، ٢: ٥٤، ٨٣ ـ ٩٠، ١٠٣ ـ ١٠٦، ١٤٠ ـ ١٩٣. صروف، **مشاهد العالم الجديد**، ص ٢٧ ـ ٣٤. الأمين، **من بلد إلى بلد**، ص ٣٠٨ ـ ٣١٠.
(٥٣) صروف، **مشاهد العالم الجديد**، ص ٤١.

الخدم في فندق كندي، ونوّه مراراً بتهذيب الأميركان ولطفهم.[٥٤] وفي سويسرا أعجب الإمام محمد رشيد رضا بصدق الناس وأمانتهم، فلم يجد فيها من يستغلّ الغريب إلا في الفنادق «ومن أسباب ذلك أن أكثر أصحابها من اليهود.»[٥٥] فكان لموقفه كعربي ذي مهمة سياسية أثر واضح في هذا الحكم.

أما فيليب حتي المؤرخ وفؤاد صروف الكاتب والصحافي فأعجبا بنشاط الأميركيين وإسراعهم في كل شيء: في السير والحركة والأكل ولا سيما في العمل، فإذا «كان في الإمكان إجمال الحياة الأميركية في كلمة واحدة فتلك الكلمة هي العمل. الكبار والصغار، النساء والرجال، الأغنياء والفقراء، كلهم يعملون.»[٥٦] فلا عيب عندهم إلا البطالة والكسل، وحين يبلغ أحدهم قمة المجد يفخر بالأعمال الوضيعة التي كان يمارسها في حداثته.[٥٧] ويرى حتي أن نشاطهم وعملهم هما سبب ما لديهم من اختراعات ومصانع ومبانٍ منقطعة النظير، ويوافقه صروف على أن حب العمل هو الركن الأساسي في حياتهم وأنه يظهر في طلبهم الإتقان والكفاءة وسرعة الإنجاز، تميّزه الحيوية والابتكار.[٥٨]

وإلى جانب النشاط والعمل أعجب حتي وصروف بطموح الأميركيين إلى التقدم واكتشاف الجديد، وباستقلالية الفرد وفرديته مع أنه شديد التعاون مع غيره حين تقتضي المصلحة العامة ذلك.[٥٩] ولعل تحرّر الأميركيين من كل القيود القديمة وإسراعهم في اقتباس الجديد وتبنّيه كان من أكثر ما أعجب رحالتنا. يشيد صروف، مثلاً، بتسابق الأميركي «في اقتباس الجديد المفيد... وتحرّره من القيود الاجتماعية والفكرية التي تغلّ أيدي المتمولّين من أبناء الحضارات الأوروبية.»[٦٠] كذلك يشيد رحالتنا بكرم الغربيين. فحتي يعرض ما ينفقه الأميركيون على أعمال الخير والإحسان، وإن لم يكن المحتاجون من الأميركيين. فقد تبرعوا بأموال طائلة للسوريين والأرمن، مثلاً، أثناء الحرب العالمية الأولى وبعيدها.[٦١] وفي فصول كاملة

(٥٤) خباز، **حول الكرة الأرضية**، ٢: ٩٣، ١٤٩، ١٦٣ ـ ١٦٤، ١٩٧.
(٥٥) رضا، **رحلات الإمام محمد رشيد رضا**، ص ٣٢٨.
(٥٦) حتي، **أمريكا في نظر شرقي**، ص ٢ ـ ٨، ١٥. صروف، **مشاهد العالم الجديد**، ص ١٨.
(٥٧) حتي، **أمريكا في نظر شرقي**، ص ١٨.
(٥٨) صروف، **مشاهد العالم الجديد**، ص ١٦١.
(٥٩) المرجع السابق، ص ٣٩.
(٦٠) صروف، **مشاهد العالم الجديد**، ص ١٩. حتي، **أمريكا في نظر شرقي**، ص ٥٠.
(٦١) حتي، **أمريكا في نظر شرقي**، ص ٢٥ ـ ١٦، ٤٤ ـ ٤٥.

يبيّن صروف ما ينفقه الأميركيون على تشجيع العلم وتطوير نظمه وتشييد المدارس والمكتبات والجامعات.[٦٢] فيما يؤكد مصطفى فروخ أن الذين نبّهوا إلى قيمة قصر الحمراء ودفعوا من أموالهم الخاصة لترميمه كانوا فرنسيين والأميركي «واشنغتن إيرفينغ»،[٦٣] لا العرب، بناة هذا القصر الرائع.

ولم يكن رحالة الجيل التالي بأقل إعجاباً بكرم الغربيين، فحسن الأمين يشيد بكرم اليوغسلافيين وترحيبهم بالضيف،[٦٤] ومالك يذكر أن عقيداً سوفييتياً لا يعرفه قدّم له جزءاً من عشائه حين لاحظ أن مالك لا أكل معه.[٦٥]

وهنا نلاحظ أن رحالتنا شعروا بافتقار مواطنيهم إلى الفضائل التي ميّزت الغربيين، ربما كان ذلك من أسباب تنبّههم وتنبيههم إليها. فإزاء لطف الخدم في فندق كندي يقول خباز: «اشتهيت في قلبي أن يكون لبلادنا حكام كأولئك الخدم.»[٦٦] وحين سمع في نيوريورك خطبة يلقيها أميركي مسيحي في الإسلام من غير أن يمسّ الإسلام بكلمة علّق، متألماً، على تعصّب الناس في وطنه.[٦٧] كذلك لفت مصطفى فروخ إلى «المصالحة اللطيفة والاتفاق الرمزي» حين رأى كلمتي الشهادة والحوقلة محفورتين فوق تمثال العذراء عند مدخل قصر الحمراء.[٦٨] ومن إعجاب حتي وصروف بنشاط الأميركيين وطموحهم وتحررهم من كل قديم نستشفّ ألمهما لما يكبّل العرب من قيود التقاليد والعادات والقيم البالية التي تحول دون تقدّمهم وإسهامهم في بناء عالم جديد، كما نستشفّ ألمهما لما يصم مواطنيهما من أنانية واتكالية، يعبّر عنه حتي بصراحة إذ يقول إن المثل الأعلى للشرقي أن يغتني ليستطيع الانقطاع عن العمل، ولذلك «صوّر الجنّة مكاناً يرتاح فيه الأبرار ويستقيلون ويتمتعون بالهدوء والسكينة.»[٦٩] ويبيّن أن الشرقي يتّكل على الحكومة لتنفّذ مشاريع يكون بحاجة إليها، فيما لا يتكل الأميركي إلا على نفسه وعلى تعاونه مع

(٦٢) صروف، **مشاهد العالم الجديد**، ص ١٠٢ ـ ١١٢، ١٢٨ ـ ١٣٥.
(٦٣) فروخ، **رحلة إلى بلاد المجد**، ص ٢٤، ٢٩ ـ ٣٨، ١٤١.
(٦٤) الأمين، **من بلد إلى بلد**، ص ٢٧٠.
(٦٥) مالك، **الرحلة إلى موسكو**، ص ٦٣.
(٦٦) خباز، **حول الكرة الأرضية**، ٢: ١٩٧.
(٦٧) المرجع السابق، ٢: ٩٢، ٢٩٧.
(٦٨) فروخ، **رحلة إلى بلاد المجد**، ص ١٠٢.
(٦٩) حتي، **أمريكا في نظر شرقي**، ص ٢١.

غيره لإنشاء المدارس والمتاحف والمستشفيات وغيرها من المؤسسات.[٧٠] وفي مقابل العدل الذي يميّز معاملات الأميركيين اليومية والتجارية يرى حتي أن معاملات مواطنيه بعيدة كل البعد عن العدل والإنصاف[٧١].

إلا أن رحالتنا وجدوا في الغرب ما يُنتقد من وجهة نظرهم. فحنا خباز لم يستطع أن يخفي استنكار اللبناني المسيحي لهذه الفرق المسيحية الكثيرة والغريبة التي حضر صلواتها في الولايات المتحدة، كالروحية والأرواحية والرسليين والعلم المسيحي وكنيسة الله. فانتقد تصرفات المنتمين إليها كرقصهم في كنيسة الأرواحيين وكنيسة الله، وملابس القسيسة الخليعة التي ترأست صلاة المؤمنين بالشفاء بالإيمان.[٧٢] أما محمد رشيد رضا فنعت المدنية الغربية كلها بأنها مدنية مادية فاسدة، قائمة على الرياء والزينة والشهوات النفسية، تبيح السكر والزنا والقمار، في مقابل المدنية الشرقية التي هي مدنية آداب وفضائل ينبغي الحفاظ عليها.[٧٣] ولا ريب في أن السبب في هذه النظرة هو تديّن رضا السلفي المتشدّد، من جهة، ونقمته على الاستعمار الغربي ودسائسه السياسية، كما رأينا، من جهة أخرى. وموقفه هذا شبيه بموقف العديد من معاصريه، أمثال محمد إبراهيم الويلحي، الذين نعتوا المدنية الغربية بأنها مادية فاسدة يجب الإعراض عنها، في مقابل المدنية الشرقية الروحية التي ينبغي المحافظة على فضائلها. أما ما هي هذه الفضائل فلم يبيّنها رضا هنا.

وتشبه نظرة حتي إلى الحضارتين الشرقية والغربية نظرة رضا، من جهة، وتختلف عنها، من جهة أخرى. فحتي يرى أيضاً أن المدنية الغربية مادية في مقابل المدنية الشرقية الروحية. يقول: «الشرقي كمالي خيالي همّه في العالم الآتي وكيفيّة الخلاص فيه. والغربي مادي عملي همّه في هذا العالم وفي كيفيّة ترقيته. وبفضل ذلك أصبح الشرقي معلّم العالم الأدبي ومشترعه الروحي، وأمسى الغربي سيّد البلدان والبحار ومدير شؤونها.»[٧٤] ولكن، على نقيض رضا، يرفض حتي أن ينعت الغربيين بأنهم ماديون فقط، وهو لا يرى فيهم المساوىء الأخلاقية التي أثبتها رشيد رضا.

---

(٧٠) المرجع السابق، ص ٢٩ ـ ٣٠.
(٧١) المرجع السابق، ص ٧١.
(٧٢) خباز، **حول الكرة الأرضية**، ٢: ٦٦ ـ ٦٧.
(٧٣) رضا، **رحلات الإمام محمد رشيد رضا**، ص ٣٧٢.
(٧٤) حتي، **أمريكا في نظر شرقي**، ص ٢١.

فحتي يبيّن أن حب الأميركي للعمل ليس بسبب الأرباح المادية التي يجنيها، وإنما «لأن العمل ناموس حياته، وسرّ وجوده وكيانه، فهو يعمل لمجرّد العمل... للإنتاج والإبداع والتلذّذ بالظفر على الصعوبات.»[٧٥] ولكن ذلك لا يعني أن حتي لم يرَ نقصاً في الحضارة الغربية، وكأنه يعزّي به نفسه عن تخلّف الشرق الصناعي. فإلامَ أوصل الأميركيين عملهم ونشاطهم وتطورهم الصناعي؟ يبيّن حتي أن التطور الصناعي أدى إلى إصابة عامل من عمال المصانع في كل ١٦ ثانية، وإلى مقتل عامل في كل ١٦ دقيقة.[٧٦] هذا، إلى جانب عجرفتهم وادعائهم التفوق القومي واحتقارهم الشعوب الأخرى.[٧٧]

وحين ننتقل إلى رحالتي الحقبة اللاحقة، نلاحظ أن رمزي مالك أعجب أيضاً بحب الروس للعمل، ولكن من وجهة نظر مسيحية، من جهة، واشتراكية سياسية، من جهة أخرى، على الرغم من كونه كاهناً كاثوليكياً. ذلك أن العديد من عرب هذه الحقبة وجدوا في الإتحاد السوفييتي نصيراً ضد الاستعمار الغربي، وفي الإشتراكية العدالة الاجتماعية والإنصاف اللذين تاقوا إليهما. فمالك يرى أن الاشتراكية العلمانية جعلت للعمل قيمة لا تزال الكنيسة تحاول فعله.[٧٨] فحسب التوراة كان العمل لعنة حلّت على الإنسان حين عصى أوامر الله وطُرد من الجنة، وعلى الرغم من محاولة الكنيسة إظهار ضرورة العمل وأهميته، لم تنجح، كما يقول مالك. فمواطنوه ما يزالون اتكاليين، كسالى، كما أكد حتي من قبل. وحين يظهر مالك إعجابه بالكنيسة الأرثوذكسية في لينينغراد دون الكنيسة الكاثوليكية، ويؤكد أن إيمان هؤلاء الأورثوذكس هو الإيمان الحق، وأن الإيمان الصادق الحقيقي هو الإيمان الذي وجده في روسيا،[٧٩] نشعر بانتماء مالك إلى الشرق، وأصلاً إلى الكنيسة المشرقية الأورثوذكسية (كان أورثوذكسياً قبل أن يعتنق الكثلكة). ثم ألا يحق لنا أن نرى أثر أصله الأورثوذكسي المشرقي، إلى جانب ميوله الإشتراكية، في إعجابه بالروس (وهم أورثوذكس) وتأكيده وجود الحرية في روسيا، وأن كل ما قيل له أو قرأه عن ملاحقة ومراقبة وخوف واضطهاد هناك ليس إلا «نتيجة الدعاية المجرمة» التي لا تحترم

(٧٥) المرجع السابق، ص ٢٤.
(٧٦) المرجع السابق، ص ٢٣.
(٧٧) المرجع السابق، ص ٦٦.
(٧٨) مالك، **الرحلة إلى موسكو**، ص ٩٠ ـ ٩١.
(٧٩) المرجع السابق، ص ١١٠ ـ ١١١، ٢٥٨.

الحقيقة وتشوّه الواقع؟[٨٠]

ويتفق مالك مع رضا في وصم الغرب بالمادية، ولكن من منطلق مختلف تماماً. فهذا الكاهن لا يتكلم على الحضارة الغربية وإنما على الكنيسة الكاثوليكية الغربية، متهجماً على مظاهر الغنى والأبّهة فيها، وعلى رتب رجال الدين وحتى بابا روما، مؤكداً أن هذا كله بعيد كل البعد عن المسيحية والمسيح الذي عاش فقيراً متواضعاً.[٨١] ويضيف: «إنني أفضّل الجامع العاري من كل تمثال، والكنس المجرّد من كل صورة، على هذه الفظائع التي أتى بها إلينا الانحطاط الفني الكنسي الغربي.»[٨٢]

وحسن الأمين الذي عاش فترة الهيمنة السياسية الأميركية لا يعجب في نيويورك بناطحات السحب بقدر ما ينتقد الطرق القذرة في بعض الأحياء، والشوارع المكسورة الأرصفة، والفقراء في أسمالهم المهلهلة، والبؤساء أصحاب النفوس المحطّمة. فيقول: «كان أحرى بمشاريع أميركا المتدفقة إلى ما وراء البحار وعبر القفار أن تنهلّ... بالرحمة على هؤلاء البؤساء.»[٨٣] ويعلّق على الحضارة الغربية كلها، لا الأميركية وحدها، بقوله: «ويح الحضارة إذا كانت لا تستطيع أن تدفع البؤس عن البؤساء.»[٨٤]

ب) المرأة

إن نظرة الرحالة إلى حضارة الغربيين ومجتمعهم وأخلاقهم لا بدّ أن تشمل أيضاً نظرتهم إلى المرأة. لانشغال محمد رشيد رضا بالقضايا السياسية لم يعر المرأة اهتماماً في «الرحلة الأوربية». أما حنا خباز وفيليب حتي وحسن الأمين ورمزي مالك فسجلوا في رحلاتهم ما لفت نظرهم في نساء الغرب. وهنا نلاحظ فارقاً بين المسلم والمسيحيين، حتى رجل الدين فيهم.

حنا خباز وفيليب حتي لا يبديان سوى الإعجاب بالمرأة الغربية. فخباز معجب بأدب المرأة الأميركية وذكائها وصراحتها وحريتها في التعبير.[٨٥] وحتي معجب بها

---

(٨٠) المرجع السابق، ص ٩٠، ١٢٢.
(٨١) المرجع السابق، ص ٥٢.
(٨٢) المرجع السابق، ص ٩٤.
(٨٣) الأمين، **من بلد إلى بلد**، ص ٣٠٨.
(٨٤) المرجع السابق، ص ٢٥٥. كذلك ص ٢٣٧، ٢٥٣ ـ ٢٥٤.
(٨٥) خباز، **حول الكرة الأرضية**، ٢: ٥٥، ٢٩٩.

لأنها تعمل، إما في البيت أو خارجه: عاملة في المصانع، طبيبة، محامية أو معلمة، «فتشعر أنها كائن مستقلّ محترِم لنفسه محتَرَم من غيره.» وتنافس الرجل في كل أعماله وصناعاته.[٨٦] ولا يرى حتي أن كثرة الطلاق في الولايات المتحدة برهان على تفسخ العائلة الأميركية. فهو يبيّن أن هناك آلاف العائلات التي لا طلاق فيها، غير أن الصحف لا تنشر إلا ما يجذب القراء ولذلك تضخّم الأخبار أحياناً كثيرة. بل يؤكد أن الحياة العائلية في الطبقة الأميركية الراقية هي من أجمل أنواع الحياة إذ تعلّم الولد ما يدرج عليه رجلاً من نيّة طيّبة وروح الإخلاص والتضحية والتعاون، ففي العائلة «يتلقى مبادىء الديمقراطية والمساواة ونواميس الانتظام والاتحاد.»[٨٧]

وكان طبيعياً أن يشعرا بالفرق بين المرأة الأميركية والمرأة في وطنهما. فخباز يقول: «فليفخر الغرب بنسائه قبل رجاله، ولييك الشرق رجاله قبل نسائه.»[٨٨] فإن كان رجال الشرق يستحقون الرثاء، فما بالنا بنسائه، ولا سيما في مستهل القرن؟! أما حتي فينتقد السوريين والمصريين الذين يعتبرون المرأة الغربية خليعة متهتّكة لأنهم يحكمون عليها من خلال منظار الشرقي ذي العادات المحافظة الذي يحجّب نساءه.[٨٩]

وهنا يتضح الفرق بين المسيحيين والمسلم حسن الأمين، مع أنه من رعيل الجيل اللاحق. فالأمين يراقب النساء في مقاهي باريس ولقاءهن بالرجال، فيقول: «إنهنّ هنا هاويات، إنهنّ ينشدن المتعة وحدها، ولا مطمع وراء المتعة. فتروعك باريس العابثة ملتقى العابثين.»[٩٠] ويشعر القارىء أن «المتعة» التي يقصدها الأمين هي المتعة الجسدية والجنسية، وإلا لما أتبعها بجملة «تروعك في باريس العابثة». فهذه هي المتعة الوحيدة التي يراها في لقاء الرجال والنساء، ولا يستطيع أن يتصوّر بينهم متعة فكرية أو معنوية أخرى. ولذلك ينتقل مباشرة إلى وصف البغايا في منعطفات شوارع باريس.[٩١]

---

(٨٦) حتي، **أمريكا في نظر شرقي**، ص ١٦، ٧٣.
(٨٧) المرجع السابق، ص ٧٥ ـ ٧٦.
(٨٨) خباز، **حول الكرة الأرضية**، ٢: ١٩.
(٨٩) حتي، **أمريكا في نظر شرقي**، ص ٧٤ ـ ٧٥.
(٩٠) الأمين، **من بلد إلى بلد**، ص ٢٣٧.
(٩١) المرجع السابق، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٩.

إلا أن أكثر ما يلفت انتباهنا هو موقف الكاهن الكاثوليكي رمزي مالك من المرأة الغربية. فهو لا ينكر «الهالة الجنسية... التي ترافق المرأة الغربية في الحياة العامة، في الحفلات والشوارع والإعلانات والمجلات والشاشة الكبيرة والصغيرة، حتى في العمل.» ولكنه، بدافع ميوله الاشتراكية، ينحى باللائمة على النظام الرأسمالي الذي يستغل هذه الهالة لأغراض تجارية، ثم يؤكد أن «هذه الهالة الجنسية المضطربة المزعجة أجدها أيضاً في محيطنا العربي.»(٩٢) وبدلاً من أن ينتقد هذا التحرر الجنسي في الغرب نجده يدافع عنه معتبراً أنه قد يكون خطوة في تحرير المرأة: «ذلك التحرّر الذي لا بدّ منه ولا رجوع عنه ككل تحرّر أصيل... ومع أمل الوصول إلى توازن نفسي أسلم إنسانية بعد فترة الانتقال التي نجتازها اليوم في تفجر الجنس غرباً وشرقاً.»(٩٣) فأن لا يرى كاهن كاثوليكي فارقاً بين الشرق والغرب في التحرّر الجنسي، ثم أن يدافع عنه على أنه خطوة في سبيل تحرير المرأة، لبرهان على مدى استبطان اللبناني المسيحي موقف الغرب من هذه القضية.

ج) العلوم والفنون

إن تباينت مواقف الرحالة من حضارة الغرب وأخلاقه ونسائه، فإنهم اتفقوا جميعاً على الإقرار بتفوّق الغرب في علومه.

أبدى كل من حنا خباز وفؤاد صروف ومصطفى فروخ إعجابه بالعلوم الغربية وبالحركة الفكرية في الغرب. فخباز آمن بأن معاهد العلم في أميركا هي «سرّ نجاح الأمة الأميركية وأسس التمدن السكسوني.»(٩٤) وصروف معجب بكل مخترعي أوروبا وأميركا وبمخترعاتهم كاللاسلكي والهاتف والراديو والسينما الناطقة. ووراء الاختراع فكر، لا يمكن أن نفصله عن العلم. ولذلك كان من أكثر ما أعجب صروف في الولايات المتحدة وأكد له رقيّها حضارتها القائمة على إحلال الآلة محل اليد العاملة، توفيراً للوقت، وليتاح للإنسان الانصراف إلى «الأعمال التي تحتاج إلى قوة التفكير والإرادة والتنظيم.»(٩٥) ومصطفى فروخ لا يبدي إعجابه بالعلوم الغربية بقدر ما يعجب بالموقف الفكري الفلسفي الذي نتج عنه هذا التطور العلمي. فهو يشيد بجهاد

(٩٢) مالك، **الرحلة إلى موسكو**، ص ١٥٤.
(٩٣) المرجع السابق، ص ١٥٦.
(٩٤) خباز، **حول الكرة الأرضية**، ٢: ٢٦٠.
(٩٥) صروف، **مشاهد العالم الجديد**، ص ١٥٠.

الفرنسيين وبحثهم وسعيهم الدائم إلى التجديد، مما يقتضي ضمناً التخلص من كل قيود تكبّل الباحث وتحول دون حريته الكاملة في البحث، إجتماعية كانت أم أخلاقية أم دينية. هذا ما نستنتجه من قوله فيهم: «إن الأمة التي تطلب التجدد وتسعى دوماً وراء البحث هي الأمة التي تودّ الحياة والبقاء.»(٩٦)

وبما أن خباز مدير مدرسة استوقفه الفرق بين نظم التعليم في بلاده والتي تستند إلى حفظ ما في الكتب، وبينها في جامعات الولايات المتحدة حيث يسجل الطالب خلاصة المحاضرات التي يلقيها الأستاذ فيدرسها.(٩٧) ولذلك رغب في إطلاع مواطنيه عليها لعلهم يستفيدون منها.(٩٨)

وهنا نرى الفرق بين هؤلاء الرحالة وبين رشيد الرضا السلفي الكاره للغرب. لم يستطع رضا إلا الاعتراف «بأن في أوربة من ينابيع العلم ومصادر المعارف ومجال الأعمال السياسية ما ليس في مصر ولا في غيرها من البلاد.»(٩٩) ولذلك ينصح العرب باقتباس علوم الغرب وفنونه والصناعات المساعدة على العمران، إلا أنه يحثهم في الوقت نفسه على كره أفكار الغرب.(١٠٠)

فعلى نقيض خباز وصروف وفروخ لم يدرك رشيد رضا أن سبب التطور العلمي في الغرب هو موقف الغربيين الفكري من الوجود، وأنه لا يمكن فصل العلم عن الفكر. والغريب أنه يطلب من هؤلاء الغربيين الذين كره مطامعهم الاستعمارية أن يساعدوا العرب على استخراج ثرواتهم الطبيعية، كالمعادن والبترول، وعلى إصلاح زراعتهم، في مقابل أن يقبضوا أجراً لقاء هذه المساعدات، وأن يأخذوا الأغذية والمواد الأولية لمعاملهم وما يربحون من بيع مصنوعاتهم الكثيرة.(١٠١) وإزاء مثل هذا التصريح يتساءل القارىء: أليس هذا تماماً ما يفعله المستعمرون الذين هاجمهم رشيد رضا؟! أو لم يدرك أنه يؤيد بذلك اتكال العرب الدائم على الغرب، مقرّاً بعجزهم عن الاستقلال العلمي والاقتصادي الذي لا ينفصل عن الاستقلال السياسي؟! إن أقوال رشيد رضا هذه تبيّن كيف أثر كرهه للاستعمار الغربي في

(٩٦) فروخ، **رحلة إلى بلاد المجد**، ص ١٩.
(٩٧) خباز، **حول الكرة الأرضية**، ٢: ٩٩.
(٩٨) المرجع السابق، ٢: ٢٦٠.
(٩٩) رضا، **رحلات الإمام محمد رشيد رضا**، ص ٣٣٥.
(١٠٠) المرجع السابق، ص ٣٧٢.
(١٠١) المرجع السابق، ص ٣٨٣.

نظرته إلى الغرب، فأدى إلى التناقض الذي وجدناه في فكره السياسي أيضاً.

وفي عهد الاستقلال نجد أن حسن الأمين لا يعجب بالعلوم الغربية وحدها، وإنما بالحركة الفكرية التي شاهدها في باريس والتي تمثلت في المدارس والجامعات والمكتبات في هذه المدينة. كما عدّد نوابغها من رجالات العلم والفن والآداب.(١٠٢)

ولكن لا خباز ولا صروف أو فروخ أو الأمين تعمّق في أسباب التطور الفكري والعلمي في الغرب. ألأن ثقافتهم لم تمكنهم من ذلك؟ أم لأن غايتهم كانت الاكتفاء بتدوين مشاهداتهم من غير بحث أو تعمّق؟ كذلك لم يتساءل رضا في كتاب الرحلة هذا عن أسباب تأخر العرب في هذا المضمار، تاركاً البحث فيها للمقالات التي كان ينشرها في مجلته «المنار»، وليست مقالتنا القصيرة هذه مجال الخوض فيها.

وفارق آخر طرأ على موقف الرحالة بسبب الفارق الزمني، أو الثقافي، هذه المرة؛ فارق نجده في موقفهم من الفن الغربي. فحنا خباز، مثلاً، حضر مسرحية يمثل فيها الممثل الشهير «جون باريمور». إنها تروي قصة رجل ظل يلاحق امرأة متزوّجة أحبها، فكاد لزوجها حتى أدخله السجن، ثم دخل على الزوجة وأهانها.(١٠٣) ويقول خباز إن المسرحية لم تعجبه لأنها لا أخلاقية.

فخباز يحكم على الفنون الغربية حكم من ينظر إليها بعين المربي الشرقي الذي تهمّه الأخلاق بالدرجة الأولى، لا قيمة الفن من حيث هو فن. لم يعلّق خباز على روعة تمثيل «باريمور»، ولا على حبكة المسرحية أو إخراجها، وإنما على ما فيها من لا أخلاقية.

وهذا يناقض تماماً نظرة الكاتب المثقف صروف إلى الفنون الغربية، ولا سيما نظرة الفنان فروخ. ففي أحد فصول «مشاهد العالم الجديد» يقارن صروف بين باريس ونيويورك فيبدي إعجابه بكل ما في باريس من فن ومتاحف وآداب وتاريخ حضاري.(١٠٤) وكان الفن الرفيع أكثر ما استوقف فروخ في متاحف باريس ومعارضها، ثم في متحف «البرادو» في مدريد، حيث يحلل مميزات «فيلاسكيز» مقارناً بين لوحاته ولوحات «موريللو».(١٠٥) أو يحلل الفوارق بين فن العرب في جامع قرطبة

(١٠٢) الأمين، من بلد إلى بلد، ص ٢٣٦.
(١٠٣) خباز، حول الكرة الأرضية، ٢: ٩٣ ـ ٩٤.
(١٠٤) صروف، مشاهد العالم الجديد، ص ١٦ ـ ١٧.
(١٠٥) فروخ، رحلة إلى بلاد المجد، ص ١٧ ـ ٢٠، ٣٤ ـ ٣٦.

وقصر إشبيلية وحمراء غرناطة، رابطاً هذه الفوارق بتطور العرب الأخلاقي في الأندلس.(١٠٦) وتتألم عين الفنان العربي، لا السياسي العربي، حين يصف تشويه جامع قرطبة بسدّ نوافذه وإلصاق الصور الزيتية على جدرانه وبناء معبد قوطي الطراز في داخله.(١٠٧)

فهذه العناية بالفن والمدارس الفنية ومميزاتها لم نعثر عليها في كتب الرحلات الأخرى، على الرغم من ثقافة الرحالة الواسعة، كثقافة صروف. ففروخ ينظر إلى الغرب بعين الفنان، لا بعين الكاتب أو المدرس أو السياسي أو الصحافي.

إلا أن من لم يكن فناناً استبطن أيضاً، مع مرور الزمن، مظاهر الثقافة الغربية وقيمها. فها هو حسن الأمين، المسلم الشيعي من جنوب لبنان، يبدي إعجابه، مثلاً، بالتماثيل في مقبرة «جنوى» ويصف ما توحي له من أفكار وعواطف؛(١٠٨) ويبيّن الفن البيزنطي القوطي في كاتدرائية القديس مرقص في البندقية؛(١٠٩) وحين زار دير «سان ميشال» في كابري ذكر أنه الدير الذي كتب فيه «أكسيل مونتي» قصة «سان ميشال».(١١٠) ولكننا نحسّ أن الأمين ينظر من منظار شرقي حين يقول، مثلاً، إن الموسيقى في بلغراد أطربته لأنها موسيقى شرقية،(١١١) ولا يقول لأنها كانت جميلة.

في هذا العرض الموجز لمن اخترنا من الرحالة نلاحظ أن كتابتهم لم تتميّز بالعمق والتفصيل اللذين في كتب رحلات الطهطاوي أو الشدياق، مثلاً، من رحالة القرن السابق، أو كتابة المويلحي وكرد علي والريحاني وأرسلان ممن دوّن رحلاته في ما بعد، والذين تناولناهم في بحث مفصل في كتابنا «الرحالون العرب وحضارة الغرب.»(١١٢) ولكن، على الرغم من السرعة والسطحية اللتين ميزتا كتابة من تناولناهم في هذه المقالة، فإننا لاحظنا أن العلاقات السياسية بين الشرق والغرب كان لها هنا أيضاً أبعد الأثر في تكييف نظرة البعض من رحالتنا إلى الغرب، ولكن ثقافة الرحالة ودينه لم يكونا بمنأى عن تكييف هذه النظرة كذلك. فقد أعجبوا بنظم

---

(١٠٦) المرجع السابق، ص ٩١.
(١٠٧) المرجع السابق، ص ٧٠ ـ ٧٣.
(١٠٨) الأمين، **من بلد إلى بلد**، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣.
(١٠٩) المرجع السابق، ص ٢٦٦.
(١١٠) المرجع السابق، ص ٢٥٩.
(١١١) المرجع السابق، ص ٢٧٣.
(١١٢) يارد، نازك سابا، **الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة**، مؤسسة نوفل.

الغرب الديمقراطية التي حققت الحرية والعدالة والمساواة، وانتقدوا الحكم الظالم، ولو أنهم اختلفوا حول مَن كان حاكماً ظالماً. إلا أن التغيير الذي طرأ على سياسة الغرب (الأوروبي أو الأميركي) في موقفه من العرب دفع رحالتنا إلى النقمة على سيطرة الغرب السياسية والثقافية وعنجهيته، أو إلى وعي ما في تطبيق نظمه الديمقراطية من شوائب.

غير أن سياسة الغرب لم تقلل من إعجاب رحالتنا بشيم الغربيين الأخلاقية، وبالعلوم الغربية، وقد وعى بعضهم قيمة الحركة الفكرية التي كان التطور العلمي وجهاً من وجوهها. فإن ما شاهدوه في الغرب ساعدهم على وعي ذاتهم القومية والثقافية والاجتماعية والأخلاقية، وكثيراً ما لفت نظرهم ما أحسوا بافتقار وطنهم ومواطنيهم إليه.